Abhat Journal, Volume. 16, Issue. 1, March 2024

Abhat Journal, Faculty of Arts, Sirte University مجلة أبحاث بكلية الآداب جامعة سرت
Source Homepage: http://journal.su.edu.ly/index.php/ABHAT/index

الطّاعون (الموت الأسود) في الغرب الأوروبيّ: 748–754هـ/1347–1353م
دراسة تاريخيّة في الأسباب والنّتائج

أ. فاطمة إبراهيم طرينة
fa.traina@art.misuratau.edu.ly
قسم التاريخ/كلية الآداب/ جامعة مصراتة/ ليبيا

الملخّص

لقد كانت الأوبئة بصورة عامّة والطّاعون بصورة خاصّة من أخطر ما تعرّضت له المجتمعات البشريّة في حقبة التّاريخ الوسيط، وقبل أن يكون الطّاعون مرضًا فتّاكًا فجائيّ الظّهور سريع الانتشار, فهو واقعة تّاريخيّة مهمة، أرّقت الشّعوب على مرّ تاريخها, وبقي حاضرًا في ذاكرة الأمم والحضارات دالًّا على الفزع المطلق والرّعب الأزليّ؛ لما يخلّفه من آثار عميقة في الصّعيدين: الماديّ والرّوحيّ للمجتمعات التي عايشته، ولطالما ترافق مع حدوثه, وانتشاره وبائيًا تدمير القوة البشريّة لهذه المجتمعات، وشلّ نموّها السّكانيّ والاقتصاديّ, ونظرًا لكثرة مخاطره, وما أفضى إليه من تحوّلات كبيرة, عانى منها الغرب الأوروبيّ على مدى النّصف الثّانيّ من المائة الثّامنة للهجرة والقرن الذي يليه؛ فحرصت الدّول, ومازالت على تبنّي الإجراءات الكفيلة بمنع حدوثه, والحدّ من استفحاله وانتشار.

الكلمات المفتاحية:

بكتيريا يرسينيا العصويّة، الطّاعون، العدوى، الموت الأسود، وباء.

The Plague "The Black Death" in Western Europe: 748-754 AH/ 1347-1353 AD
A Historical Study of Causes and Consequences

Fatma Ibrahim Traina
fa.traina@art.misuratau.edu.ly
Department of History/ Faculty of Arts
Misurata University/ Libya

Abstract:

Epidemics in general, and the plague in particular, were among the most dangerous things that human societies were exposed to in the era of medieval history, and before the plague was a deadly disease that suddenly appeared and spread rapidly. It was an important historical event that disturbed peoples throughout their history, and remained present in the memory of nations and civilizations. On absolute terror and eternal terror; Because of its profound effects on both levels: Material and spiritual for the societies that experienced it, and its occurrence and epidemic spread were always accompanied by the destruction of the human power of these societies, and the paralysis of their population and economic growth, and due to the many dangers it caused, and the major transformations it led to, from which the European West suffered over the course of the second half of the eighth century and the following century ; Countries have been keen, and are still keen, to adopt measures to prevent its occurrence and limit its progression and spread.

Keywords:

Yersinia bacillus bacteria, plague, infection, Black Death, epidemic.

المقدّمة:

يكشف تاريخ الأوبئة, وخصوصًا في حوض البحر الأبيض المتوسّط, أنّ الأوبئة المعدية والفتّاكة تعاقبت عليه عبر أزمنته المختلفة؛ فقد لا يخلو عصر من العصور- قديمًا أو حديثًا- من محاولات الإنسان لاحتوائها والخروج منها بكلّ الوسائل والسّبل؛ عن طريق استحضار تجارب الأمم والمجتمعات البشريّة؛ ففي العصور القديمة كان للأمراض والأوبئة دورٌ كبيرٌ في تغيير مجرى بعض الأحداث الكبرى والتّأثير فيها؛ إذ أمدّتنا مؤلفات الرّحالة الأوائل والمؤرخين ومظانُّهم, بالكثير من المعلومات والأخبار عن الكوارث والأوبئة التي عصفت بالبشريّة عبر تاريخها, أسهب بعضهم في وصفها, ومحاولة الوقوف على أسبابها, والعوامل التي ساعدت على انتشارها واتّساع رقعتها أحيانًا؛ لتشمل عدّة بقاعٍ, وكيفيّة استعداد هذه الدّول وسكّانها بمختلف أطيافهم لمواجهتها والتّغلب عليها؛ إذ تكوّن مرجعيّة علميّة يُقتضي توظيفها والاستفادة منها أثناء تجدّد ظهور هذه الأوبئة الفتّاكة.

وممّا لاشكّ فيه، أنَّ الطّاعون -قبل إن يكون مرضًا فتّاكًا- ذو آثار واضحة وبيّنة، على الرّغم من خلّوها في الغالب من التّدمير، فأنَّه يُعدّ وجهًا واحدًا من عدّة أوجه قاتمة مرّت على المجتمعات البشريّة عبر مسارها التّاريخيّ؛ فهو يؤدّي -بطبيعة الحال- إلى حدوث تغيير وانهيار مفاجئ للتّوازنات القائمة داخل المجتمعات والدّول والمدن التي أصابها، فقد شكّل الوباء ولاسيما الطّاعون (Black Death) موروثًا ثقافيًّا في أذهان المجتمعات الإنسانيّة وعقولها خلال العصر الوسيط.

يأتي وباء الطّاعون" الموت الأسود" في مقدّمة الأوبئة التي تعرّض لها الغرب الأوروبيّ؛ فهذا الوباء لم يكن بمرضٍ جديدٍ وطارئٍ عليه؛ فقد تضمّنت المصادر التّاريخيّة إشارات للعديد من الأزمات التي ألمت بأوروبّا خلال عصورها الوسيطة، منها: الجائحة الطّاعونيّة سنة541م، في عصر الإمبراطور البيزنطي جستنيان (1) (527-565م), حيث انطلق هذا الوباء من مصر للقسطنطينيّة مسببًا وفاة إمبراطورها, وتراجع عدد سكّانها إلى الرّبع, في الوقت الذي كان فيه جستنيان يعمل جاهدًا على استعادة أملاك الإمبراطوريّة الرّومانيّة الغربيّة, في محاولة إحيائها بعدما اجتاحتها هجرات القبائل الجرمانيّة (2) وسيطرت عليها؛ فعُرف باسمه, وقد دوّن بركوبيوس القيصري أحداثه والعجز عن معرفة أسبابه بقوله: "خلال ذلك الزّمان وقع وباء كاد يعصف بالجنس البشريّ كُلّه, ولآن ففي سائر البلايا التي هبطت علينا من السّماء, قام رجال يتّسمون بالجرأة على تفسير أسبابها...ذلك أنّهم كانوا يخترعون أسبابًا يصعب على الإنسان فهمها ويصطنعون نظريّات غريبة...مع أنّهم يدركون أنّ ما يزعمون هراء محض"(جوتفريد، 36،201).

وتكمن أهمّيّة الدّراسة في أنّها تسلّط الضوء على وباء الطّاعون (Black Death) الذي اجتاح غرب أوروبّا، في القرن (الثّامن الهجري/الرّابع عشر الميلادي)؛ لمعرفة ماهيّة هذا الوباء، وأنواعه، وأسبابه، والعوامل التي ساعدت على انتشاره، وأوضاع الغرب الأوروبيّ عندما اجتاحه هذا الوباء، وقدرة السّكان والسلطات الحاكمة آنذاك على التّكيّف والتّأقلم والتّعايش معه.

تهدف الدّراسة إلى معرفة الدّور الذي كان للعلماء المسلمين بفضل ما دوّنوه من مؤلّفات وابتكارات في مجال الطّب؛ وما أبدعه العقل الإنسانيّ من أساليب وطرق لمواجهة وباء الطّاعون واحتوائه؛ للحدّ من انتشاره، وكيف نجح الغرب الأوروبيَّ في الاستفادة من المؤلفات العربية وتوظيفها في انقاذ المدن الأوروبية منه، فضلاً عن معرفة الآليّات المتّبعة في التّعامل مع مثل هذا الوباء؛ لمنع استفحاله عند تكراره في الحاضر والمستقبل.

إشكاليّة الدّراسة:

بما أنَّ الدّراسة ترتكز أساسًا على جعل الوباء مشكلة، وأنَّ الطّاعون يُعدّ من أشد الأوبئة المعدية والفتّاكة في تاريخ الإنسانيّة، فالإشكاليّة هنا ليست في ظهور الوباء في حدّ ذاته، بل في كيفيّة حدوثه ومجابهته والتّعامل معه؛ لأنَّ الطّاعون في الغالب لا يأتي منفردًا، إنّما قد تسبقه أزمة اقتصاديّة تكون بؤرة مؤقّتة (قصيرة) لظهوره، وأحيانًا قد تعقبه؛ من هنا تطرح الدّراسة التساؤلات الآتية:

-من أين بدء هذا الوباء؟ وما مصدره؟ كيف تحوّل إلى جائحة عصفت بدّول غرب أوروبّا ومجتمعاتها في الفترة الوسيطة؟

- ما الأسباب التي ساعدت على انتشاره على هذه المساحة الشّاسعة من أراضي غرب أوروبّا؟

- ما الآليّات والتّدابير التي اتبعها حكّام الغرب الأوروبيّ في مجابهة هذا الوباء؟ ما مدى نجاحهم في إدارة هذه الأزمة الوبائيّة الطّاعونيّة؟

- ما نظريّة العدوى؟ وكيف عبرت للغرب الأوروبيّ؟ وما دورها في الحدّ من استفحال هذا الوباء ومنع انتشاره؟

فرضيّة الدّراسة:

لعلّ وباء الطّاعون الذي استشرى في الغرب الأوروبيّ؛ كان سببًا رئيسًا في انحسار الوجود الحضاريّ خلال الحقبة المتوسّطيّة؛ في ظلّ الآثار والنّتائج التي أحدثها على مختلف مناحي الحياة ديموغرافيًّا، واقتصاديًّا، ودينيًّا، وثقافيًّا.

منهج الدّراسة:

انتهجتْ الدّراسة منهجًا تاريخيًّا وصفيًّا، مستعينةً بأسلوب التّحليل على ضوء النّصوص والمعطيات التّاريخيّة المتوفّرة، في محاولة لاستنطاقها، وفهمها، وتأويلها، بالاعتماد على عدّة مراجع ذات الصّلة بموضوع الدّراسة؛ بغية الوصول إلى نتائج تّاريخيّة علميّة واضحة مقنعة ورصينة.

وقبل الحديث عن أسباب حدوث الطّواعين ونتائجها على الغرب الأوروبيّ. نتطرّق هنا إلى بعض العناوين المتعلّقة بالموضوع، وهي:

أولاً: ماهيّة الطّاعون:

أطلق المؤرّخون كلمة وباء على جميع الأمراض المعدّية التي تصيب الإنسان والحيوان، فمن المعلول أنّه حين يبدأ في الانتشار خارج الحدود الزّمنيّة والمكانيّة فإنّه يتحول إلى وباء (epidemic).(الحاج، 1989، 163/1).

ويُعدُّ مرض الطّاعون من الأوبئة القديمة التي عرفها الإنسان، فقد كان أوّل وصف للطّاعون مسجّلاً عند قدماء المصريين على أوراق البُرديّ (أبوحَبْ، 1982، 455)، وظلّ هذا المرض وسبب حدوثه سرًّا دفينًا إلى أواخر القرن التّاسع عشر الميلاديّ، حينما تمكّن العالم السّويسريّ "يرسين 1849م" من اكتشاف الجرثوم المسبّب لهذا المرض أثناء حدوث الجائحة التي بدأت في الهند والصّين. (بيرن، 2013، 22)

ويُعرّف بأنّه: "مرضٍ معدٍ يصيب الإنسان والحيوان تسبّبه جرثومة تعرف باسم "Yersinia pestis" توجد في الحيوانات أو البراغيث الموجودة عليها.(أبوحَبْ، 1982، 456).

واشتهر هذا المرض في التّاريخ باسم (الموت الأسود Black Death) أو الطّاعون الأسود، حيث انتشر في العالم ما بين1347-1353م، ورغم أنّ هذا التّعريف لم يستخدم في العصور الوسطى, بل كان يستخدم مصطلح" الفصل الكبير والفناء الكبير"(ابن تغرى بردي، 1992، 166/10؛ ابن شحنة، 1997، 282) و" الطّاعون الجارف"(3)و" الطّاعون الانساب"؛ لأنّه قلّما مات به شخص إلاّ تبعه أحد من أولاده واقربائه وذوي رحمه (ابن حبيب، 1987، 111/3) و"الوباء الوافد"(4) "الطاعون أو الموت العظيم"(ابن بطوطة، د.ت، 93)، أمّا مصطلح" الموت الأسود "Mors Atre (5)" فهو مجاز تعبيريّ عن الموت الفظيع، وكثرة الوفيات التي تلحق البلاد من هذا الوباء.(بيشوب، 2004، 353).

ثانياً: تعريف الطّاعون وأسبابه وأعراضه:

أ) الطّاعون لغةً:

يقول عنه الجوهري في الصّحاح:" الطّاعون الموت من الوباء، والجمع طّواعين"(الجوهري، 1979، 79/1). وفي مختصر العين: " الطّاعون الدّاء، هو طعن الرّجل إذا أصابه ذلك الدّاء، على بناء مالم يُسَمّ فاعله، فهو مطعون، وقيل الطّاعون قُروحٌ تخرج في المغابن وفي غيرها" (الفراهيدي، 1988، 418/8) وقيل عنه: " بأنّه المرض العامّ الذي يفسد له الهواء، فتفسد به الأمزجة والأبدان" (ابن منظور، 1984، 132/1؛ الزبيدي، د.ت، 296/9)، وكذلك هو" مرض الكثيرين من النّاس في جهة من الأرض وغيرها، ويكون مرضهم نوعًا واحدًا بخلاف سائر الأوقات؛ فإنّ أمراضهم فيها مختلفة". (ابن خاتمة، 2013، 210).

ب) الطّاعون اصطلاحًا:

1) في المصادر الإسلاميّة: نجد العديد من المصادر التّاريخيّة الإسلاميّة عرّفت وباء الطّاعون مع وصف لبعض أعراضه وأسبابه منها:

قال عنه ابن سينا إنّه:" بعض تعفّن يعرض في الهواء يشبه تعفّن الماء في المستنقع الآجن" (ابن سيينا، 1999، 125/1) في حين عرّفهُ ابن النّفيس (6): " بأنّه فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماويّة أو أرضيّة، كالماء الآسن، والجيف الكثيرة، كما في الملاحم التي لم تدفن القتلى ولم تحرق" (الرّازي، 2002، 8/5).

أمّا الرّازي فذكرهُ بقوله: " الطّواعين ورم حارّ، يعرض في الأوربيات(الكبد)، والإبط، ويقتل في أربعة أيام أو خمسة... والطّاعون الرّدى أسود، والأحمر أقلّ شرًّا (الزّبيدي، د.ت، 1/ 248) أمّا عن أعراضه فقال: يعرض مع الطّاعون الوبائيّ اختلاط العقل، وبرد الأطراف، واختلاف المرار، ونزفه، ووجع في البطن، وتمدده... ورعاف، وحرارة في الصدر، وكرب سواد اللسان، وعطش شديد، وأشياء أخرى رديئة".(الرّازي، 2002، 4/ 431).

في حين، عرّفه البعض الآخر(السُّرمري, 2021, 61؛ الأنصاريّ، 2020, 19؛ النّوويّ، 2001، 14/ 204؛ ابن حجر العسقلاني، 1990، 97) بأنَّه: " مادة سُمّيّة تحدث بتورّم مؤلم جدًّا، يحدث في المواضع الرّخوة والمغابن في البدن، والأغلب ما تكون تحت الإبط وخلف الأذن" وذكره ابن سينا بأنَّه يكون" ورمًا حارًا قتّالًا، يكون في الأعضاء الغدديّة اللحم... ويخرج منها لهب لسواد ما حواليه، أو يحمر حمرة شديدة بنفسجيّة... ويحصل معه خفقان وقيء، والأسود منه قلّما من يسلم منه، وأسلمه الأحمر ثُمّ الأصفر".(ابن سينا، 1999، 112/3).

وقد عرّفه ابن خاتمة الانصاري الأندلسيّ بأنَّه:" حمّى خبيثة دائمة، ينتج عن سوء مزاج قلبيّ؛ بسبب تغيّر الهواء عن حالته الطّبيعيّة على الحرارة والرّطوبة, مهلكة في الغالب, يتبعه كرب وعرق غير عامّ لا يعقب راحة ولا ترتفع عقبه حرارة...".(ابن خاتمة، 2013، 130).

وقد بيّن ابن القيّم الجوزيّة أسباب حدوثه بقوله: " فساد الهواء جزء من أجزاء السّبب، والعلّة الفاعلة للطّاعون، فإنَّ فساد جوهر الهواء...ترتّب عليه العفونة...السّميّة...وإنّ أكثر حدوثه في أواخر الصّيف وفي الخريف؛ لكثرة الفضلات الحارّة وعدم تحللها".(ابن القيّم الجوزيّة، 1994، 34/4). أمّا أعراضه فوصفها وصفًا دقيقًا بقوله: " إذا وقع الخرّاج في اللحوم الرّخوة، والمغابن، وخلف الأذن والأرنبة، وكان من جنس فاسد سُمّي طّاعونًا؛ وسببه دم ردئ مائل للعفونة... يفسد العضو ويغيّر ما يليه، وربّما رشح دمًا وصديدًا، ويؤدّي على القلب كيفيّة رديئة، فيُحدث القيء والخفقان والغشي".(ابن القّيم الجوزيّة، 1994، 4/ 35).

بينما جعل ابن خلدون سببه في الغالب: "فساد الهواء بكثرة العمران، وكثرة ما يخالطه من العفن والرّطوبة الفاسدة...إذا فسد الهواء...وكان الفساد قويًّا وقع في الرّئة... إن كان الفساد دون القوي تكثر الحمّيّات، وتمرض الأبدان وتهلك".(ابن خلدون، 1988، 376/1).

أمّا ابن حجر العسقلانيّ فقال عنه:" إنَّه في حقيقته (الطّاعون) ورم ينشأ من هيجان الدّم، أو انصباب الدّم إلى عضوٍ فيفسده، وإنَّ غير ذلك من الأمراض العامّة النّاشئة عن فساد الهواء يسمّى طّاعونًا، بطريق المجاز لاشتراكهما في عموم المرض به، أو كثرة الموت".(ابن حجر العسقلانيّ، د.ت، 205/10).

2) المصادر الأجنبيّة: يعدّ وصف "دجاكسون" " Jackson James Grey" الذي عاصر الطّاعون في بداية القرن التّاسع عشر الميلاديّ، من أكثرها دقّة؛ إذ قال: بأن تظهر على المصاب دُمّلة أو اثنتان أو ثلاثة, وهذه الدُّمّل تتشكّل وتكبر خلال يوم؛ لتصير في حجم الجوزة أوعين الجمل، وآخرون تظهر بهم العدد نفسه من الجمرات أو الفحمات، والتي تتكون في المغبن وفي الابط أو قرب الصّدر".(Jaskon, 1909, 273-274).

وتبدأ أعراضه عنده: "برّعشة مفاجئة قويّة، وبهذيان أحيانًا، يليه عطش قوي لا يرتوي، ويتحول الماء البارد على ملاذ ويتلهّف إليه المصابون بقوة وتهوّر، وأمّا المصابون بالرّعشة المفاجئة القويّة، فلا تظهر عليهم دُمّل أو فحمات أو بقع، ولا أيّ تشوّهات خارجيّة؛ إلا أنّهم يهلكون في أقلّ من أربع وعشرين ساعة".(الفرقان، 2002، 313).

3. المصادر الطّبّيّة: قد عرّفتهُ بقولها: الطّاعون في الأصل مرض حيوانيّ, يصيب القوارض والجرذان السّوداء, تسّببه نوع من البكتيريا تُسمّى" يرسينيا الطّاعونيّة" وتبقى وتستمرّ بين القوارض والجرذان بصورة متواطئة أحيانًا, يصل إلى حدّ الوباء، وتنتقل الإصابات بينهم عن طريق البراغيث، وعندما يصاب الجرذ أو الفأر بالطّاعون تتركه براغيثه؛ بسبب الحمّى التي تكون فيه أو بسبب موته، وفي انتظار عائل حيوانيّ جديد، تكمن البراغيث فترة تصل إلى 15 يومًا في الحبوب(7)؛ لتنقل بعدها إلى الحيوانات السّليمة، فإن لم تجد الحيوانات، وصادفت إنسانًا علقت به, ولقحته بدائها". (Dols,1978, 69-70).

ويتبيّن لنا من هذا العرض أنّ المرض ناجم عن بكتيريا موجودة في دم البراغيث, وعندما تتمكّن البكتيريا من البراغيث، بحيث لا تستطيع أن تتغذى تغذّيًا طبيعيًّا، تتّجه إلى الحياة عن طريق التّطفّل على الفئران والجرذان، وتتغذّى على دمه, وذلك بغرز نابها في جسم الضّحيّة، مما يسبّب انتقال البكتيريا إلى الضّحيّة؛ فتهلك وتموت.

ثالثًا: أنواع الطّاعون:

غالباً ما تكون العدوى بهذا الوباء على ثلاثة أشكال هي:

أ) الطّاعون الليمفاوي (8): هو ينشأ مباشرة من لدغة البرغوث, يبدأ بتورّم الغدد الليمفاويّة للإنسان في منطقة الفخذ والإبط وفي أعلى الرّقبة والأذن، وطلوع بثرة أو كبّه، وهي غدّة أشبه بالخرّاج أو الدُّمّل تغطي الجسم، وتكون سوداء اللّون (ابن حجر العسقلانيّ، 1990، 45)، ونادرًا ما يقدَّر للمصابين به النّجاة؛ إذ تصل نسبة الوفاة في هذا النّوع من 30–60%؛ وذلك لأنّ الأورام تجاور الأعضاء

الحيويّة, مثل الكبد؛ ممّا يسبّب في إضعاف جدران الأوعية الدّمويّة؛ فتتوقّف الأعضاء عن العمل, ويتوفّى المصاب في غضون7-10 أيام.(جوتفريد،2017، 98-99؛ العدويّ, 2018، 33).

ب) طّاعون تسمّم الدّم "الدّمويّ" (انتان): حيث تسبّب البكتيريا تلوثًا في الدّم، ممّا يُؤدّي إلى حدوث تجلّطات داخل الأوعية الدّمويّة، ويكون القيء مصحوبًا بدم في العادة، والوفاة تكون مؤكدة في الغالب.(بيرن، 2013، 23؛ أبو حب، 1982، 63).

ج) الطّاعون الرئويّ: إذ تنتقل العدوى إلى الرّئة، وفي هذه الحالة المرض معديًا، وينتقل من شخصٍ إلى آخرَ(علي السيد، 1986، 154؛ بيشوب، 2004، 356) انتقالًا مباشرًا بواسطة الرّذاذ أو زفير المصاب أثناء التّنفّس، أو عن طريق بصاقة الدّم، وتمتد مدة الحضانة من1-6 أيّام، ومعدل الوفاة فيه 100%. (واتس، 2010، 74).

رابعًا: تّاريخ المرض وانتشاره في الغرب الأوروبيّ:

اختلفت الآراء حول بداية ظهور هذا المرض، أو بلد المنشأ له، وكيفيّة عبوره، وانتشاره في المدن الأوروبيّة في القرن الرّابع عشر الميلاديّ، فقد جعلت بعض الآراء من آسيا الصغرى مهدًا للمرض، ونقطة عبور له من الشّرق إلى الغرب؛ وذلك بسبب سيطرة المغول على طريق (الحرير).(ابن الخطيب, 2013، 49؛ المقريزي، 1970، 773-774)، وانفجر الوباء من مدينة (كافّا) وهي محطّة تجاريّة (مستعمرة جنّوية) تقع في شبه جزيرة القرم(باروك، 2007، 254)، وعندما قام المغول بحصارها هلك العديد منهم، الأمر الذي أجبرهم على الانسحاب بعد تخلّصهم من الجثث الرّطبة والدافئة عن طريق قذفها داخل أسوار المدينة؛ ممّا سّبب انتشار المرض في المنطقة.(بيرن، 2013، 25).

وقد ذُكر أنّ "التّجار الجنوبّين أصيبوا بالمرض أثناء مخالطتهم المغول المصابين به في سنة1347م في مدينة كافّا؛ ليتوجهوا به نحو إيطاليا بعد أن أبحروا من ميناء "كريميا" على البحر الأسود.(سكوت، 2017، 21-22؛ باروك، 2007، 254).

ومن هذا العرض يتّضح لنا أنّ موطن المرض الأقرب هو آسيا الصغرى، ومنها عبر إلى أوروبّا الغربيّة ثمّ إلى مصر؛ إذ تضافرت العوامل المذكورة مع السبّب الرئيس لحدوث المرض, كما أثبته الطّب الحديث بأنّ بعض البكتيريا العصويّة المسبّبة له قد التصقت بخراجات الطّعام الخاصّة بالجنود المغول، وخاصّة أن هذه البكتيريا –كما ذكر سابقًا- تتّخذ من الحبوب تحديدًا (القمح) مكانًا للتّكاثر، فضلاً عن كون صوامع القمح ومخازن الغلال بيئة ملائمة لتعايش الفئران والجرذان السّوداء النّاقلة لهذا المرض(واتس، 2010، 72)، وبذلك انتقل المرض إلى التّجار الموجودين في المحطّة، بالإضافة إلى اختباء بعض الفئران والجرذان في بضائع المسافرين المخزّنة على أرصفة الموانئ (بيرن، 2013، 29-30)، وقد ذكر "ميشيل دي بيازا" أنَّ " الجنوّية قد حملوا هذا المرض في عظامهم، وكان الوباء شديد العدوى، لدرجة أنَّ من يتحدّث مع هؤلاء الجنود المصابين يصاب بالعدوى، ولقد كان هذا الوباء شديد الفتك بالبشر".(باروك، 2007، 254؛ سكوت، 2017، 26).

وحمل الجنوّية الوباء، أثناء عودتها إلى إيطاليا، ليبدأ المرض في غضون أشهر يستفحل أمره، وينتشر بسرعة في المدن الأوروبيّة بداية من جزيرة صقلية وجزر سردينيا وكورسيكا, ثمّ فرنسا وانجلترا والإمبراطورية الألمانيّة(حتحات، 2017، 89) وصولاً إلى ممالك أرغون وقشتالة في شبه الجزيرة الأيبيريّة؛ وثمّ إلى الجزر الأسكندنافيا وروسيا، (سكوت، 2017، 37-40؛ بيرن، 2013، 27) حيث استأنف نشاطه في بداية فصل الرّبيع، بعد أن ظلّ ساكنًا طيلة فصل الشّتاء؛ بسبب شدّة البرودة. (بيشوب، 2004، 353).

وعندما وصل هذا الوباء إلى غرب أوروبّا وانتشر فيها أهلك أعدادًا كبيرةً من سكّانها، الأمر، الذي نتج عنه حدوث موت جماعيّ في المناطق، حيث ذُكر لنا الكاتب (جون فرواساو) حجم الكارثة التي حلّت بالغرب الأوروبيّ بقوله: " لقد ظهر مرض يُعرف باسم الوباء، وانتشر في كلّ أنحاء العالم، وأهلك ثلث البشريّة" (باروك، 2007، 254)، وكذلك تطالعنا حولية البابوية في أفنيون أنَّه: " لم تعرف البشريّة في تاريخها مثل هذا الوباء (البلاء)... وإنّ الأحياء لم يعودوا كافيين لدفن الأعداد المهولة من الموتى"(باروك، 2007، 256).

وقد وضّحت لنا الإحصائيّات التي أجراها المؤرّخ (ج.س.رسل) حجم الكارثة أيضًا من بواسطة وضع دّراسة لبيان عدد الوفيات؛ فقد وجد أن ما بين 20% إلى 25% من سكّان انجلترا هلكوا بسبب هذا الوباء(بيرن، 2013، 29-30) أمّا ألمانيا فقد بلغت النسبة 50% من سكّانها، في حين أنَّ فرنسا هلك من سكّانها مايقارب من 25% بين عامي 1348-1349م، وفقدت نابولي ما بين ثلث وخمس سكّانها، أمّا إسبانيا فقد هلك ملك قشتالة وليون (ألفونسو الحادي عشر) بسبب هذا الوباء, وهلك في إقليم جليقة ما يقارب

من ثلثي سكّانه من رجال الدين وعلمانيّين.(باروك، 2007، 256-257).

خامسًا: أسباب ظهور الوباء في الغرب الأوروبيّ:

نتيجة لهذا الكم الهائل من الوفيات، أصيب سكّان أوروبّا بالفزع الشّديد، فضلًا عن عدم معرفتهم السّبب الرّئيس لحدوث هذا المرض وانتشاره، والذي لم يُعرف إلا متأخّرًا في القرن التّاسع عشر الميلاديّ- كما ذُكر سابقًا- مما دفع سكّان أوروبّا إلى محاولة فهم هذا الوباء وسبب حدوثه وانتشاره، فأرجعوها إلى عدّة أسباب، هي:

السّبب الأوّل: أنّهم ألقوا وزر هذا الوباء على عاتق اليهود؛ فاتّهموا بأنّهم دسّوا السّمّ في الآبار وفي مياه الأنهار(واتس، 2010، 81-83)، وكما اتّهموا بأنّهم لوّثوا الهواء أيضًا, وبسبب هذا الاتهام أُحرق عدد كبير منهم في ستراسبورج وسباير، كما تعرضّوا للذّبح وإلقاء جثتهم في نهر الرّاين، وارتكبوا فيهم مذابح شنيعة في جنوب فرنسا والنّمسا وإسبانيا (بيشوب، 2004، 357) رغم أنّ الجاليات اليهوديّة تعرضت هي الأخرى للموت جرّاء هذا الوباء شأنها شأن باقي سكّان غرب أوروبّا.(واتس، 2010، 82).

والسؤال هنا لماذا اتُّهِم اليهود تحديدًا بأنّهم المسؤولون على نشر هذا الوباء في غرب أوروبّا؟

فنجد أنّ السّبب الذي ذكر في كتاب "عودة الموت الأسود" هو أنّ بعض الفقراء قد" قُبض عليهم وبحوزتهم نوع معيّن من المساحيق، ووُجّهت لهم تهمة تسميم المياه...وامتنع النّاس في خوف من شرب المياه من الآبار"(سكوت، 2017، 34), وقد أكّد بيشوب أنّ بعضهم- وخاصة اليهود- كانوا أوّل الممتنعين بقوله: " إن اليهود امتنعوا عن استخدام مياه الآبار غير النّظيفة، وكذلك مياه الأنهار الملوثة".(بيشوب، 2004، 357).

وممّا سبق, يُمكن القول: إنّ اليهود كانوا أكثر فطنة وحذر في حماية أنفسهم من هذا الوباء، وكأنّهم طبّقوا قواعد وقوانين خاصة للحد من انتشاره بينهم...والتّساؤل هنا: من أين جاءت هذه المعرفة لديهم، رغم أنّ المسبب للمرض لم يكن معروفًا آنذاك؟

وربّما يرجع السّبب هنا إلى أنّ اليهود, بحكم وجدهم ومعيشتهم داخل البلاد العربية الإسلامية، كانوا -بطبيعة الحال- على معرفة باللّغة العربيّة، فضلًا عن لغتهم العبرية؛ إذ" تخصّصوا في العمليّات التّجاريّة وإقراض الأموال، فضلًا عن بيع الأدوية الطبية" (واتس، 2010، 80).

وممّا لا شك فيه إنّ ممارسة بعضهم لمهنة الطّبّ, وإطلاعهم على المؤلّفات العربيّة في هذا المجال؛ أتاح لهم الفرصة لإتّباع سّبل الوقاية التي ذُكرتْ في هذه المؤلّفات, وبذلك ضمنتْ لهم الحماية من خطر الإصابة بهذا الوباء.

السّبب الثّاني: عدم قدرة سكّان الغرب الأوروبيّ على معرفة سبب هذا الوباء, فضلًا عن عدم استيعابهم حجم الكارثة، وما ترتّب عنها من أهوال، واتّجهوا إلى الاعتقاد بأنَّ السّبب هو غضب الله عليهم، ودعّمت الكنيسة هذا الرّأي، بعد أنَّ رفضت الباباويّة الشائعات حول مسؤوليّة اليهود، إذ أن "الوباء حل بسببٍ يتصل بالمجرات السّماويّة في تحرّكها في أبراجها، أو بسبب الغضب الرّبانيّ من شرور هذا العالم، ومن ثَمَّ وجب القصاص" (باروك، 2007، 256)، ونجد أنَّ الجرّاح الفرنسيّ دي شولياك (de Chauliac) أيضًا أرجع سبب هذا الوباء لأسباب سّماويّة تتعلّق بتزامن ظهور كواكب زحل، والمشتري والمريخ جميعًا في يوم محدد من سنة 1345م (De Chauliac, 1980, 170) وقد تبنّى الكاتب الإيطاليّ" بوكاشيو" في روايته "الطّاعون" وجهة نظر البابويّة بقوله:" بأنَّ الوباء قد ضرب أوروبّا, بسبب المجرّات السّماويّة، أو بسبب قصاص الله من بني أدم على شرورهم" (بوكاشيو، 2006، 40-41).

وفي هذا الجوّ الدّينيّ الذي ساد أوروبّا اتّجه النّاس لرفع دفع غضب الله عليهم إلى وهب ثرواتهم, وأموالهم, وإقطاعاتهم، وخاصّة طبقة النّبلاء, والأمراء، إلى الكنائس والأديرة؛ طمعًا في النّجاة من العدوى.(بيرن، 2013، 43-45).

سادسًا: الخطوات التي اتخذها الغرب الأوروبيّ للقضاء على الطّاعون والحدّ من انتشاره:

استمرّ الطّاعون في الانتشار، ولم تعفَ منه أيّ منطقة في شمال المتوسّط أو جنوبه، ولا توجد حصانه لأيّ شريحة منه؛ فقد استهدف النساء, والأطفال الصغار، فضلًا عن النّبلاء والأمراء ورجال الدّين، ممّا أثّر على النّمو السّكانيّ لغرب أوروبّا، وخاصّة في فلورنسا التي قضى على ما يقارب من ثلث سكّانها البالغ 1000,000قبل الطّاعون (واتس، 2010، 66)، وكذلك في الشّمال الإيطاليّ، مما دفع السّلطات هنالك إلى تطبيق قانون (الطّوارئ)، الذي يجبر السّكان على التّخلّص من أحشاء الحيوانات المكوّمة أمام محلات الجزارين، وكذلك النّفايات والسّوائل التي يلقيها عمّال الجلود في الشّوارع، والمخلفات البشريّة، وكلّ الأشياء ذات الرّوائح الكريهة، بأن

تُدفن على وجه السّرعة، فضلًا عن كنس الشّوارع وتنظيفها، في محاولة للحدّ من انتشار الوباء، واستعانوا بالقساوسة ورجال الدين لتنفيذ ذلك.(بيشوب، 2004، 356-357).

أمّا فلورنسا فقد شُكّل مجلس صحيّ مؤقت؛ ليقوم بهذه الأعمال في سنة 1348م، ورغم الإجراءات الوقائيّة التي اتّخذتها المدن الأوروبية، فضلًا عن قيامهم ببعض الإجراءات العلاجية (واتس، 2010، 66) والتي تتمثّل في "إسالة دم المريض، وتقطيع أوصال الأورام المتقيّحة" (باروك، 2007، 256)، فإنّ هذا لم يحدّ من انتشاره، الأمر الذي دفع مدن الشّمال الإيطاليّ إلى تطبيق الحجر الصّحّيّ على المرضى بإجراءاته الخمسة (واتس، 2010، 24)، وهي:

أ) تحديد انتقال البشر باستخدام الحجر الصّحّيّ.

ب) دفن اجباريّ لموتى الطّاعون في حفر خاصّة، وتغطيتها بحجر الجير، والتّخلّص من متعلّقاتهم الشّخصيّة، وذكر بيشوب أنّه" ثم الإفراج على السّجناء، كما جلبوا الفلاحين من (العبيد والأقنان)؛ لدفن جثث الموتى مقابل منحهم حريتهم، أو إعطائهم نفقات السّفر".(بيشوب، 2004، 357).

ج) عزل المرضى بالطّاعون في مستشفيات الأمراض المعدية.(كامي، 2020، 71).

ه) فرض الضرائب من قبل الوحدات المحليّة؛ لتقديم خدمات صحّيّة.(واتس، 2010، 24-25).

د) تقديم المعونة للذين تضرّرت حياتهم من جرّاء الوباء؛ بتوزيع الأموال على أكثرهم تضرّرًا، وتوفير فرصة عمل لبعضهم الآخر، كحرّاس للمنازل الموبوءة التي أُغلقت، في حين إنّ النساء والخادمات، عُيّنّ لرعاية المرضى.(ديفو، 2021، 138).

وترتّب على ذلك انتقال السّكان إلى المدن والمناطق الخالية من الطّاعون، فقد أصبح الشّعار في كلّ مكان في الغرب الأوروبيّ " أهرب مبكّرًا، أهرب بعيدًا، وعُد متأخّرًا".(واتس، 2010، 78).

ولكن يبقى السّؤال، كيف طبقت المدن الأوروبيّة, وخاصة الشّمال الإيطاليّ, الحجر الصّحّيّ بإجراءاته الخمسة دون معرفتها بنظريّة العدوى، ودون معرفة البكتيريا المسببة للطّاعون؟

نظريّة العدوى: هي إحدى انجازات الطّبّ العربيّ، في كيفيّة التّعامل مع الأمراض المعدية عن طريق إجراء الحجر الصّحّيّ؛ فقد ترتّب عن الفتح الإسلاميّ للأندلس في سنة92هـ/711م استقرار العديد من الأطبّاء العرب المسلمين داخل المدن الأندلسيّة, أمثال:" الزهراويّ (9)، وابن رشد (10)، وابن زهر"(11) وهؤلاء كان لهم الفضل في تداول مؤلّفات الأطبّاء المسلمين مثل: "الرازي وابن سينا" في هذه المدن (واتس، 2010، 29)، فكان الوزير "ابن الخطيب الأندلسيّ" أوّل من استخدم مصطلح الوباء نتيجة العدوى؛ إذ كان معاصرًا لهذا المرض، وتتلخّص نظريّته عن العدوى بإمكانيّة انتشار الأمراض عن طريق الاتّصال بالمريض، وهذا ما أكّده بقوله:" فإنّ قيل كيف نسلّم بدعوى العدوى...قلنا: لقد ثبت وجود العدوى بالتّجربة، والاستقراء، والحسّ, والمشاهدة...ثُمَّ إنَّه من غير خفي على من نظر في هذا الأمر أنَّ من يخالط المصاب بهذا المرض يهلك، ويسلم من لا يخالطه، كذلك فإنَّ المرض يقع في الدار أو المحل من ثوب أو آنية... ويبيد البيت بأسره... ومن البيت...".(هونكه، 1991، 267-277).

أمَّا جزيرة صقليّة التي كانت في يد العرب المسلمين قبل الغزو النورمانيّ (12) لها، الذين نجحوا فيما بعد من احتلالها وإقامة مملكتهم فيها مع جنوب الإيطاليّ، فقد لعبت دورًا كبيرًا في نقل التّراث الإسلاميّ، إذ ضمّت العديد من المراكز العلميّة والثّقافيّة، وكذلك العديد من العلماء العرب المسلمين واللاتين والبيزنطيّين، في حين كان المعبر الثّالث هو الحروب الصليبيّة، والتي مكّنت الغرب من نقل الإرث الحضاريّ للحضارة العربيّة الإسلاميّة إليهم. (واتس، 2010، 27-28).

سابعًا: طرق العلاج التي اتّبعها الغرب الأوروبيّ:

اعتمد معظم سكّان غرب أوروبّا على وسائل العلاج التي كانت شائعة آنذاك لعلاج الطّاعون، وذلك بخلط الأعشاب بقرون الحيوانات وحوافرها، مع كبد ومخّ الخيول والبغال والماعز والأرانب (المقريزي، 1970، 770/2؛ ابن تغرى بردي، 1992، 124/10)، وكذلك استنشاق الكثير منهم خليطًا من الفلفل الأسود والأحمر والصندل وحرق الشّيح والبابونج بكمّيّات كبيرة في الأسواق، والأماكن المكتظّة بالسّكّان، وفي المنازل (Hecker,1833, 136-137)، كما لجأ بعضهم الآخر إلى رشّ مسحوق الكبريت و الزّرنيخ على النّار، فضلاً عن غسل وجوههم وأيديهم بالخلّ من حين لآخر، أو بماء الورد (السّيد عليّ، 1986، 160)، مع الامتناع عن أكل اللحوم والأسماك (ديفو، 2021، 69). كما نصحوا باستخدام طريقة فصد الدّم التي كانت معروفة عند العرب, وذلك باستنزاف الدّم من الأوردة الواصلة لمكان الورّم

حتى يفقد المصاب وعيه؛ لتجديد الدّم؛ وإمداد الجسم بدمٍ نقيّ بدلًا عن الدّم الملوّث.(السّيد عليّ، 1986، 160).

ثامنًا: النتائج المترتبة عن انتشار المرض في الغرب الأوروبيّ:

لقد ترتّب على انتشار هذا الوباء في غرب أوروبّا عدّة نتائج منها:

1) إحدث الموت الأسود نزيفًا مهولًا على الدّيموغرافية السّكّانيّة، فقد تضمّنتْ كتب المؤرّخين والأطباء إشارات للعدد اليوميّ للوفيات في أوروبّا خلال خمس سنوات 1347-1353م، قدّر بحوالي35 مليون نسمة، أي أنَّ الخسائر ناهزت (60%) من السّكّان، أيّ قرابة 48 مليون نسمة من بين 80 مليون نسمة؛ كإجمالي عدد القارة آنذاك.(قدار، 2020، 137).

2) ظهور حركة (التّوابين السّائطين)، وهي جماعات كانت تطوف البلدان على هيئة مواكب وتصرخ ندمًا وتوبةً، وتطلب من الرّب إنقاذ العالم من هذا الوباء، وسُمُوا بهذا الاسم؛ "لأنّهم كانوا يجلدون أنفسهم بالسّياط "(بيرن، 2013، 116-118؛ السّيد عليّ، 1986، 258)، وقد تطاول اتباعها على رجال الدّين؛ ممّا كان يشير إلى بوادر حدوث معارضة ضدّ الكنيسة الرّومانيّة، الأمر الذي دفع البابا (كلمنت السّادس) باتّهامهم بأنّهم أهل ضلال وشعوذة، وترتّب على ذلك التّنكيل بهم، وتعداه إلى إحراق عدد منهم، بعد أن وُصفهم رجال الدّين" أنهم وباء حلّ بعقول العامّة".(باروك، 2007، 258).

3) ظهور "رقصات الموت" التي شارك فيها الباباوات، رجال الدّين، والأباطرة، فضلاً عن عامّة النّاس، واكتسبتْ هذه الرقصات شعبيّة واسعة في القرن الثّاني عشر الميلاديّ.(بوكاشيو، 2006، 22).

4) بروز طبقة جديدة في مجتمع الغرب الأوروبيّ أفرزها هذا الوباء، بعد أن ورث العديد من الأحياء أموال غيرهم الذين قضوا نحبهم في هذه الجائحة(بيرن، 2013، 127-128)، بالإضافة إلى انكماش حركة التّجارة وتعطّلها، وإغلاق الأسواق وتوقف عمليّات البيع والشّراء، وارتفاع أسعار السّلع والبضائع, وأجور الفلاحين والخدم وحفّاري القبور؛ لشدة الوباء وقسوته، وانشغال النّاس بالمرض، وكثرة الموتى.(قدار، 2020، 137).

5) حدوث تطوّر كبير في فنون النّقش والتّصوير, خاصّة في الأمور المتصلة بالموت.(باروك، 2007، 259).

6) انقسم مجتمع غرب أوروبّا إلى قسمين من جرّاء هذا الوباء, منهم من اعتزل الحياة وترك ملذّاتها وشهواتها، وسلك طريق الرّهبنة؛ انتظارًا للموت، في حين أقبل بعضهم الآخر على مختلف ملذّات الحياة ومغرياتها، مما ترتّب عليه استفحال النّوبات الوبائيّة في الغرب الأوروبيّ؛ نظراً للإسراف في إتباع الشّهوات، والانقياد لها في فترات تاريخيّة لاحقة، كانت أقلّ ضراوة من جائحة الطّاعون هذه، عُرفتْ باسم "أصداء الوباء".(السّيد عليّ، 1986، 177).

الخـــاتـــمة:

- وضّحت الدّراسة أن وباء الطّاعون من الأوبئة التي عانت منها البشريّة على مرّ العصور والأزمنة المختلفة؛ فهو مرض معدٍ يصيب الإنسان والحيوان تسبّبه بكتيريا يرسينيا عصويّة الشّكل, تعيش في الفئران والجرذان أو البراغيث الموجودة فيها؛ لذلك دائمًا ما نجده حاضرًا في ذهنيّات المؤرخين والأطّباء من المسلمين ولإفرنجه، وفي مصنّفاتهم العلميّة.

- برهنت الدراسة أنَّ سنة 748هـ/1347م وهي السّنة التي شهدت ولادة وباء الطّاعون في الحوض الغربيّ للبحر المتوسّط, حيث عدّ القرن 8هـ/14م بداية مرحلة جديدة في تأريخ الطّواعين وأوبئة الغرب الأوروبيّ الوسيط، لأنَّ هذا الوباء الذي تميّز بشدّته وشموليّته، كان منطلقًا لسلسلة متّصلة من الطّواعين التي استمرت حتى القرن 12هـ/18م.

- اظهرت الدّراسة بأنَّ الطّاعون الأسود يعدّ أخطر كارثة عصفت بالعالم الأوروبيّ الوسيط، وتظهر تجلّياته وخطرته فيما أحدثه من انحدار ديمغرافيّ؛ بالقضاء على عدد كبير من سكّان غرب أوروبّا، دون مراعاة للفوارق الاجتماعية، والطّبقيّة، والجغرافيّة السائدة آنذاك في العالم المتوسّطي، فضلاً عمَّا سببه من آثار تدميريّة هائلة على باقي مناحي الحياة المختلفة.

- أكّدت الدّراسة أنَّ ظهور الطّواعين واستمرار حدوثها لا يكون دائمًا بسبب أسباب أرضية، أو آفات سّماويّة فقط، بل قد يكون العنصر البشريّ سببًا مباشرًا في انتشارها وتفاقمها, وخاصّة في حالات الحروب والفتن والفوضى، وعدم التزام بالإجراءات الاحترازيّة الوقائيّة والعلاجية.

-بيّنتْ الدّراسة أنَّ الجهل بسبب حدوث الطّواعين في العصور الوسطى, وطرق علاجها؛ مهدّ لسيطرة الفكر الدّينيّ على الغرب الأوروبيّ في تحديد أسباب حدوث الطّاعون, والتّعامل معه في أغلب الأحيان على أنَّه عقاب إلهيّ, يصيب البشر من سخط الرّب عليهم؛

بسبب أفعالهم، وليس مرضًا منتشرًا في أنحاء المسكونة, يتطلّب طرق علاج ووقاية منه.

– لعبتْ المعارف العربيّة الإسلاميّة، وما حفظته كتابات المؤرخين والأطبّاء المسلمين ومضانّهم العلميّة، التي عبرت إلى غرب أوروبّا، الدّور الأكبر في التّخفيف من وطأته؛ إذ أنَّ الحكومات الأوروبية في إيطاليا وفلورنسا، بتطبيقها لنظام الحجر الصّحّيّ بأشكاله الخمسة، فضلاً عن اطّلاعها على نظريّة العدوى، قد تمكّنت من مكافحته والحدّ من استفحاله وتوسّعه.

الهوامش:

(1) عندما تولّى الامبراطور جستنيان العرش البيزنطي (527-565م)، ذكر أنَّ هذا الوباء انطلق من صعيد مصر، ثمّ انتقل إلى مدينة القسطنطينيّة، ووصلها في(541-542م) عن طريق القمح المصدّر من مصر إلى العاصمة، فكانت خراجات القمح تحمل الفئران والبراغيث النّاقلة للمرض. (يُنظر: العدويّ، 2018، 32).

(2) هي شعوب تنتمي للجنس الهند- أوروبيّ، عبرت بحر البلطيق وتركت موطنها الأصلي في شبه جزيرة إسكندناوه منذ وقت مبكر؛ لقسوة الظّروف المناخيّة فيها، فضلًا عن ضغط الأجناس المغوليّة عليهم (الهون), واستقرّت على ضفاف نهر الدّانوب والرّاين، بعد أن سمح لهم الإمبراطور فالنز بالعبور, واعتنقت هذه الشعوب الدّيانة المسيحيّة على مذهب آريوس، ثُمّ اجتاحت الإمبراطوريّة الرّومانيّة ودخلتها وسيطرت على عاصمتها روما في410م. (يُنظر: عاشور، 1991، 74-75).

(3) مصطلح اطلقه مؤرخو المسلمين على فورة الطّاعون الكبرى التي كانت تستمر بضعة أيام أو أشهر في المتوسط، وتسبّب في هلاك مئات الآلاف من البشر، وسُمّي جارفًا؛ لجرفه النّاس كما يجرف السّيل ما على وجه الأرض، والجرف لغةً: الغرف من فوق الأرض واكتساح ما عليها.(يُنظر: ابن حجر العسقلاني، 1990، 223).

(4) ذكر هذا الاسم في عنوان تأليف لابن الخاتمة الاندلسيّ عن الوباء:" تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" في: حسن، محمد "صفة الطاعون في مصنفات العصر الوسيط في ثلاث رسائل أندلسية"، 2013, 210).

(5) تميزًا له عن الطّاعون الأبيض" السّل"، في حين أنَّ الطّبيب والمؤرخ الألماني "هيكر" كان أوّل من اطلقه عندما دوّنه في كتابه؛ لينتشر هذا المصطلح في ألمانيا ومنها لمعظم مناطق الشّمال الأوروبيّ فنعتوه بالموت الأسود, وأرجع السّبب؛ لظهور بقع سوداء اللون على جسم المريض؛ نتيجة لحدوث نزيف تحت الجلد. (يُنظر: المنفي، 2005، 323؛ Hecker , 1833, 4-5).

(6) علاء الدّين علي بن أبي الحزم القرشي الدّمشقي(ت687هـ/1288م)، والقرشيّ نسبة على القُرَش وهي قرية في الشام، عاش الشطر الأوّل من حياته في دمشق، ثُمّ درس الطّب على يد رئيس الأطبّاء بديار مصر والشّام عبد الرّحمن بن علي، كما تتلمذ على يد عمران الإسرائيليّ، ورحل إلى مصر زمن الملك الكامل الأيّوبيّ، بعد أن أظهر براعة فائقة في الطّبّ، وعمل في البيمارستان النّاصري، واختاره السّلطان بيبرس طبيبًا خاصًا له، وأصبح عميدًا للأطباء في مصر، بعد أن تولّى رئاسة البيمارستان المنصوري، ومن أشهر كتبه: كتاب "الموجز"، واعتمد ابن النّفيس المنهج العلميّ التّجريبي القائم على التّجربة والملاحظة وفرض الفروض، من خلال هذا المنهج اكتشف الدّورة الدّمويّة الصّغرى. (يُنظر: حربي، 2022، 57).

(7) تضع البراغيث بيضها في الأرض الرّمليّة والتّرابيّة لمسكن الإنسان، وفي جحر الفئران، حيث تتغذّى اليرقات على الكائنات العضويّة الموجودة في التّربة من براز الفئران والكلاب والقطط، ولكنَّها تتكاثر في الحبوب بطريقة استثنائيّة؛ لأن أجزاء فم اليرقات غير مهيّأة لمضغ قشور السيليلوز المحيطة بالحبوب، (يُنظر: واتس، 2010، 72).

(8) يُعرف باسم (العقديّ، الدُّبليّ، الدُّمليّ، التّرفي، الغدديّ).(لوبيز، 1997، 28).

(9) أبو القاسم خلف بن عباس (ت 404هـ/1013م)، ولد في مدينة الزّهراء الأندلسيّة, ونشأ في قرطبة وكان طبيبًا عند الخليفة عبدالرّحمن النّاصر(300-350هـ/912-961م) واشتهر بالطّبّ، وكان خبيرًا بالأدوية المفردة والمركّبة، وله عدّة تصانيف في الطّبّ من أشهرها" التّصريف لمن عجز عن التّأليف".(يُنظر: الهوني، 1986، 148).

(10) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الأندلسيّ(520-595هـ/1126-1198م)، فيلسوف من أهل قرطبة, عُني بكلام أرسطو وترجمه للعربيّة، وزاد عليه زيادات كثيرة وصنّف نحو خمسين كتابًا منها: "فلسفة ابن رشد"، و"تهافت التّهافت"، و"بداية المجتهد ونهاية المقتصد ".(يُنظر: الزركلي، 2002، 318/5).

(11) أبوبكر محمد بن عبد الملك بن زهر الإيادي (507-595هـ/1113-1198م)، ولد بإشبيلية، وخدم دولتي الملثمين والموحدين ونبغ في الطب الذي أخذه عن أبيه، وعُرف "بالحفيد ابن زهر" من مؤلفاته: "التّرياق الحسينيّ"، ورسالة في "طبّ العيون". (يُنظر: الزركلي، 2002، 250/6).

(12) وتعني رجال الشّمال، وهم من الشّعوب الجرمانيّة التي سكنتْ شبه الجزيرة الإسكندنافيّة وشبه جزيرة الدّنمارك، ويُطلق عليه اسم الفايكينغ (Viking) بمعنى سكّان الخلجان الصّغيرة والفيوردات (Fiords). كما أنَّ العرب عرفوهم باسم المجوس؛ لإشعالهم النّيران عند نزولهم إلى الشّواطئ. (يُنظر: ترحيني، د.ت، 87).

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر:

– الأنصاري، زكريا بن محمد السِّنْيكيّ(2020)، تحفة الرّاغبين في بيان أمر الطّواعين، اخرجه: عبدالله صدقي, (د.م)، سلسلة إخراج المخطوطات الصغيرة.

– ابن بطوطة، أبوعبد الله محمد بن عبدالله الطّنجيّ (د.ت)، تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" المعروفة برحلة ابن بطوطة"، تعليق: محمد السّعيد، القاهرة، المكتبة الوقفية.

– ابن تغرى بردي، جمال الدّين يوسف بن الأمير الأتابكيّ (1992)، النّجوم الزّاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، تعليق: محمد حسين شمس الدين، ج10، بيروت، دار الكتب العلميّة.

– الجوهريّ، أبو نصر إسماعيل بن حماد (1979)، تاج اللّغة وصحاح العربيّة، تحقيق: عبد الغفور عطارد, ط/2، ج1، بيروت، دار العلم للملايين.

– ابن حبيب، بدر الدّين حسن بن عمر(1987)، تذكرة النّبيه في أيّام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد أمين، تقديم: سعيد عبد الفتّاح عاشور، ط/2، ج3، القاهرة، الهيئة المصريّة للكتاب.

– ابن حجر العسقلانيّ, شهاب الدّين أحمد ين عليّ (1990)، بذل الماعون في فضل الطّاعون, تحقيق: أحمد عصام الكاتب, الرياض، دار العاصمة.

– ـــــــــــــ(د.ت)، فتح الباريّ في شرح صحيح البخاريّ، ج10، القاهرة، دار التّقوى.

– ابن خاتمة الأندلسيّ، أحمد بن علي الأنصاريّ (2013)، " تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، في: ثلاث رسائل أندلسيّة في الطّاعون الجارف (749هـ/1348م)، تحقيق: محمد حسن، سلسلة التّاريخ، بيت الحكمة، المجمع التّونسيّ للعلوم والآداب والفنون.

– ابن الخطيب، لسان الدّين محمد بن عبد الله الغرناطيّ(2013)، في: ثلاث رسائل أندلسيّة في الطّاعون الجارف (749هـ/1348م)، تحقيق: محمد حسن، سلسلة التّاريخ، بيت الحكمة، المجمع التّونسيّ للعلوم والآداب والفنون.

– ابن خلدون، عبدالرّحمن بن محمد (1988)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ج1، بيروت، دار الفكر.

– الرّازي، أبو بكر بن محمد (2002)، الحاوي في الطّبّ، تحقيق: هيثم خليفة، ج5، بيروت، دار إحياء التّراث.

– الزّبيدي، محب الدّين محمد بن المرتضى (1988)، تاج العروس من جواهر القاموس, ج9، بيروت، مكتبة الحياة.

– ابن سينا، أبو عليّ الحسين بن عليّ (1999)، القانون في الطّبّ، ضبط حواشيه: محمد أمين الضّناوي، ج1، ج3، بيروت، دار الكتب العلميّة.

– السُّرمري، جمال الدّين يوسف بن محمد (2021)، الوباء والطّاعون، علّق عليه: شوكت رفقي، عمان، دار الرّياحين.

– ابن الشّحنة، محبّ الدّين محمد بن محمد (1997)، روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق: سيّد محمد فهمي, بيروت، دار الكتب العلميّة.

–الفراهيدي، أبوعبد الرّحمن الخليل بن أحمد (1988)، العين، تحقيق: مهدي مخزوم، إبراهيم السّامرّائيّ، ط/2، ج8، إيران، دار الهجرة.

– ابن القيّم الجوزيّة، شمس الدّين محمد بن أبي بكر بن أيوب (1994)، زاد المعاد في هدى خير العباد، ط/27، ج4، الكويت، مكتبة المنار الإسلاميّة.

– ابن منظور، جمال الدّين بن مكرم (1984)، لسان العرب، ج1، بيروت، دار أحياء التّراث العربيّ.

– النّوويّ، أبو زكريّا مُحيي الدّين بن شرف (2001)، المنهاج في شرح صحيح مسلم، تحقيق: رضوان جامع رضوان، ج14، القاهرة، مؤسّسة المختار.

– المقريزيّ، أبو العبّاس تقيّ الدّين أحمد بن علي (1970)، السّلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، صحّحه وضبط حواشيه: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة.

ثانيًا: المراجع:

المراجع العربية:

– ترحيني، محمد(د.ت)، معالم التّاريخ الأوروبيّ الوسيط، بيروت، دار الهاديّ.

– أبوحَبْ، جليل (1982)، الحشرات النّاقلة للأمراض، الكويت، علم المعرفة.

– الحاج، محمود (1989)، الطّبّ الوقائيّ النّبويّ، ج1، الموصل، جامعة الموصل.

– حربي، خالد (2022)، علم الأوبئة في الحضارة الإسلاميّة واثره في مكافحة جائحة كورونا، تونس، منشورات سوتيميديا.

– الزّركلي، خير الدّين (2002)، الأعلام، ط/15، ج5، ج6، بيروت، دار العلم للملايين.

– عاشور، سعيد عبد الفتّاح (1991)، أوروبّا العصور الوسطى" التّاريخ السّياسيّ"، ط/6، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريّة.

– العدويّ، أحمد (2018)، الطّاعون في العصر الأموي (صفحات مجهولة من تّاريخ الخلافة الأمويّة)، بيروت، المركز العربيّ للأبحاث.

– الهوني، فرج محمد (1986)، تّاريخ الطّبّ في الحضارة الإسلاميّة، مصراتة، الدّار الجماهيريّة (سابقًا).

– المنفي, محمد محمد (2005)، تاريخ الأوبئة، بنغازي، دار الكتب الوطنيّة.

المراجع المعرّبة:

– بيرن، جوزيف (2013), الموت الأسود، ترجمة: عمر سعيد الأيوبيّ، أبوظبيّ، هيئة أبوظبيّ للسّياحة.

– بيشوب، موريس (2004)، تّاريخ أوروبّا في العصور الوسطى، ترجمة: عليّ السّيّد عليّ، القاهرة، المجلس الأعلى للثّقافة.

– جوتفريد, روبرت (2017)، الموت الأسود جائحة طبيعيّة بشريّة في عالم العصور الوسطى، ترجمة: عبادة كحيلة، القاهرة، المركز القوميّ للتّرجمة.

– سكوت, سوزان، كريستوفر دنكان (2017)، عودة الموت الأسود أخطر قاتل على مرّ العصور، ترجمة: فايقة جرس حنا، مراجعة: هاني سليمان، المملكة المتّحدة، مؤسّسة الهنداويّ.

– واتس، شلدون (2010)، الأوبئة والتّاريخ والمرض والقوة والإمبرياليّة، ترجمة: أحمد عبد الجواد، القاهرة، المركز القوميّ للتّرجمة.

- لوبيز، روبرت (1997)، ثورة العصور الوسطى التّجاريّة (950-1350م)، ترجمة: محمود أبو صوة، مراجعة: صلاح الدّين السّوريّ، فاليتا، منشورات ELGA.

-هونكه، زيغريد (1991)، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، مراجعة: مارون عيسى الخوري، ط/9، الدّار البيضاء، دار الآفاق الجديدة.

المراجع الأجنبية:

- Jaskon (James Grey)(1909):, An account of The Empire of Morocco and district of Suse, London ..

- Dols (M)(1978):, The black death in the Middle East, Princeton University press .

- De Chauliac (Guy)(1980):, Ia Grande Chirurgie, édit.Félix Alcan, Paris.

- Hecker (I.F)(1833):, The Black Death in the fourteenth century, translated by Babington, London.

ثالثًا: الأدبيات:

- بوكاشيو، جيوفاني (2006), الديكاميرون، ترجمة: صالح علمانيّ، دمشق، دار المدى للثّقافة.

-كامي, ألبير (2020)، الطّاعون، ترجمة: كوثر عبدالسّلام البحيريّ، مراجعة: محمد القصّاص، القاهرة، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة.

- ديفو, دانيال (2021)، يوميّات سنة الطّاعون، ترجمة: أحمد كمال، تقديم: شكري مجاهد، القاهرة، أركان للدّراسات والأبحاث.

رابعًا: البحوث والمجلات العلميّة:

- باروك، خوليو(2007)، " الوباء الأسود في عالم القرن الرّابع عشر"،ترجمة: إسحاق عبيد، في: ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرّابع عشر: قيام وسقوط إمبراطوريّات، معرض بالقصر الملكي في إشبيليّة، مايو- 2006: دراسات: ماريا خيسوس فيجيرا، تقديم: إسماعيل سراج الدين، الاسكندريّة، مكتبة الاسكندريّة.

- حتحات، فاطمة الزهراء (2017)، "انعكاسات وباء الطّاعون على الاقتصاد بأوروبّا في القرن 14م"، مجلة الدّراسات التّاريخيّة، مج18، العدد الخاصّ.

- السّيد عليّ، عليّ محمود (1986)، "الفناء الكبير والموت الأسود في القرن 14م (دراسة مقارنة بين الشّرق والغرب)"، المجلة التّاريخيّة المصريّة، العدد33، مارس.

- الفرقان، الحسين (2002)، "مفهوم الوباء عند الإخباريين المغاربة في القرن التّاسع عشر الميلاديّ"، مؤتمر المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، اكتوبر.

- قدار, المحجوب (2020)، " طّاعون الموت الأسود وجهود أوروبّا في مواجهته ق14-17م"، مجلة العبر للدّراسات التّاريخيّة والأثريّة، مج 3، العدد 2، سبتمبر.